

حجة الاسلام أبو حامد الفزالي

﴿ رأيه في التعلم والتعليم ﴾

بيننا كيف تعلم أبو حامد الفزالي حتى صار حجة الاسلام، وإمام العلماء الأعلام، وهو أنه اجتنب التقليد وجرى على طريق الاستقلال، وكفى برأي نفسه بالرياضة والعمل حتى صار شيخ المارفين، وصفوة الصديقين، ووقفي على ذلك بيان رأيه في التعلم والتعليم والعلوم وتربية النفس والكمال البشري في الدنيا باستخلاص ذلك من كتبه وتقديمه زبدة قبة لطلاب الكمال في العلم والمعرفة والعمل والمجاهدة وما يتبع ذلك حتى كأن المطلع عليه أدرك حجة الاسلام في نهايته، وأخذ عنه صفوة حكمه، وما كان لييسر لنا هذا لولا أن سبق لنا مطالعة هذه الكتب من قبل بقصد الانتهاء بها، وأخذ الحقائق منها، وقد كنا ذكرنا في المنار أن كتابه إحياء علوم الدين كان أستاذنا الأول وأنا وقفنا لمطالعة قبل الشروع في طلب العلوم الآلية والشرعية وبارشاده كان لهذا العاجز طريقة خاصة في الطلب مقرونة بالنية الصالحة كان من أثرها ما عبر عنه شيخنا الشيخ حسين الجسر بقوله في ملأ من الناس بدار علي أفندي السمين بطرابلس الشام: إن فلاناً ماوى في سنة واحدة من سبق لهم الاشتغال علي سبع سنين من أذكاء الطلاب: والفضل في هذا بعد غاية الله وهدايته لا يبي حامد الفزالي جزاء الله عنا خير الجزاء. وإنما صرحت بهذا ليعلم من يقرأ ترجمة حجة الاسلام في المنار أنني أجري فيها على نية وخيرة، ثم لا يمكن أن يكون يريد أن يكتب عن عالم أوحكيم فينظر عند الكتابة إلى بعض ما قيل فيه وبعض ما يؤثر عنه فيختلف من هنا عبارة ومن هناك أثارة ويحمل ذلك ترجمة، ولترغب طلاب العلوم لاسيما الأزهريين منهم في التأمل والبصر فيما نكتب عن هذا الأمام ونحري الاستفادة منه ولعل ذلك يكون مشوقاً لهم إلى مطالعة الأحياء وغيره من كتبه

﴿ رأي النزالي فيما يطلب من المتعلم ﴾

نلخص ما يأتي من كتاب العلم من الإحياء مقروناً بالعبارة فقد جاء في الباب الخامس منه في آداب المتعلم والمعلم ما يأتي : أما المتعلم فأدابه ووظائفه (٥) كثيرة ولكن ينظم تقاريفها عشر جمل
وظائف طالب العلم وآدابه

(الوظيفة الأولى) تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف
إذ العلم عبادة القلب وصلادة السر وقرينة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة
التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبثات
فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارة عن خبائث
الأخلاق وأنجاس الأوصاف ،

أقول ثم أطال في هذا وقد اشترطه الله صاحب التربية إلى مكلم الشريعة
لطالب علم الحقائق فقال « حق المشرع لتعلم الحقائق أن يرعى ثلاثة أمور
- الأول أن يطهر نفسه من ردي الأخلاق تطهير الأرض للبذر من خبائث
النبات وقد تقدم أن الظاهر لا يسكن إلا بيتاً طاهراً وأن الملائكة لا تدخل بيتاً
فيه كلب » وقد شرح النزالي هنا حديث عدم دخول الملائكة بيتاً فيه كلب
(وهو في الصحيحين) بطريق الإشارة والاعتبار فقال :

« واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشهوة إلى الدنيا والتكلم عليها
والحرص على التزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور
البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور ، والصور في هذا العالم غالبية على المعاني لاطنة فيها ،
وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتطلب المعاني فلذلك يحشر كل شخص على

(٥) هي جمع وظيفة وهو استعمال موله وأصل الوظيفة من الشيء ما يقدر له في كل
يوم من رزق أو طعام أو شراب أو عاف للدواب ذكره في لسان العرب وقال : وظفنه
توظيفاً ألزماً إياه (أي الوظيفة) وقد وظفت له توظيفاً على الصبي كل يوم حفظ
آيات من كتاب الله عز وجل : اه فإطلاق أهل العصر الوظيفة على أعمال
الحكومة له وجه وجه

صورته المعنوية » ثم قال

« فان قلت كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم فيها ما أبده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سبب قاتلة لهلكة وهل رأيت من يتناول سببا مع علمه بكونه سببا قاتلا إنما الذي نسميه من المترشحين حديث يلقونه بالسنة مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء » قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب: وقال بعضهم إنما العلم الخشية لله تعالى (٢٨: ٣٥) إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم فخير الله فأبى العلم أن يكون إلا الله أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه

« فان قلت اني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جهة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها فيقال اذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك ان ما اشتغلوا به قليل النماء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى اذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة وسيأتي فيه مزيد بيان وايضاح ان شاء الله تعالى »

أقول المراد بهذه الوظيفة ما نبر عنه بالترية النفسية فمن رأيناها مقدمة على التعليم وأن من يعلم من لم تهذب أخلاقه كان كمن يقدح النار أعناق الخنازير، ويعطى السلاح للمجانين، وذلك أن المعلم القاصد الأخلاق يستعين به على الشرور والإفساد في الأرض كما هو مشاهد . ومن رأي كثير من الصلحاء أن علة سوء حال أهل الأزهر هي كونهم أكثرهم ممن لم يتحلوا بترية ولا تأديب لكونهم من بيوت لا تعرف لائرية معنى ولا تهذيب سبيلا ولا للعلم قيمة وإنما يقذف أهلها بأولادهم في الأزهر لأجل الخلاص من خدمة العسكرية أو لأجل الجراية وأرقمهم من يقصد أن يكون جسد التعليم قرضيا أو مفتيا ولا شيء من ذلك يمد من طلب العلم لوجه الله وإذا لم يقصد بالعلم إلا لوجه الله بإحياء هدي كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا صلاح

حال مجاد في نفوسهم وأحوالهم الاجتماعية فأني غناء فيه وكيف يرجي الخير من صاحبه بل لا يشك عاقل في كون طلب العلوم الدنيوية لا يكون مرقيا للنفس صاحبه وحاملا له على خدمة أمته بالاخلاص النافع الا اذا صحبته تربية النفس وتهذيب الاخلاق وحسن النية فمن كان فاسدا الاخلاق اتخذ العلم وسيلة لحفظ الدنيا وشهواتها لا يبال في سبيلها بأمة ولا ملة . ففساد الاخلاق هو السبب في قلة النابضين في علوم الدنيا والدين ، وقلة العاملين المخلصين ممن يمدون نابضين ، ولو كانت نفوس أكثر المتعلمين منا أو الكثير منهم عالية وأخلاقهم كاملة لسهل عليهم النهوض بهذه الامة الى أوج العزة في زمن قصير ، ولكن بلائنا بقصد التربية أضفنا بلائنا بقصد التعليم ، . واذا قد قرأت بعض كلمات حجة الاسلام في علماء الدين في عصره المنير فاذا تقول فيهم في عصرنا هذا ؟ ثم قال

(الوظيفة الثانية) ان يقلل (وفي نسخة يفرغ) علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الاهل والوطن فان الملائق شاغلة وصارقة (٣٣:٤) ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه) ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيتك كلك فأنت من اعطائه إياك بعضه على خطر (يريد على شك) والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فتشتت الارض ببعضه واختلقت الهواء ببعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع . أقول انه جعل الرحلة ومفارقة الوطن والاهل وتقليل الملائق والشراغل وظيفة واحدة لأن الغرض منها فراغ الفكر وصفاء الذهن فكأنه هو الوظيفة المقصودة وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا للرحلة في طلب العلم وكونها مزيد كمال في التعليم وما زال الناس على هذا في الشرق والغرب حتى ان أهل المملكة الواحدة من ممالك أوروبا لا يكتفون بالرحلة من بلد من بلادهم الى آخر لجودة التعليم في مدارسه واتساع دائرة العلوم فيها بل يرحل منهم كثيرون الى مدارس مملكة أخرى كرحلة أهل فرنسا وانسكترا الى سويسرا وألمانيا . ثم قال

(الوظيفة الثالثة) أن لا يتكبر على العلم ولا يتأخر على العلم بل يلقى اليه بتمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويدعن لنصيحة اذعان المريض الجاهل للطبيب

المشتق الحائق . وينبغي ان يتواضع لعلله ويطلب الثواب والشرف بخدمة ...
 فلا ينبغي لطالب العلم ان يشكر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستكشف عن
 الاستفادة الا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة . ومهما أشار عليه المعلم
 بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أفع له من صوابه في نفسه
 اذ التجربة تعلم على دقائق يستغرب سماعها مع انه يعظم نفسها وبالجملة كل
 متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالاختفاق والخسران .
 أقول ذكروني هذه الوظيفة كثيرا من الاداب قد يتوقف في تقليد المعلم منها
 ويظن ان هذا مخالف لما ذكرناه عنه من سلوك طريق الاستقلال في العلم وانما
 يظن هذا من يضل عن الفرق بين العلم نفسه وبين طريق التعليم فتعكم الطلاب
 في طريقة الاستاذ في التعليم خرق وفساد لا يجوز بحال ولو جاز هذا لكان مودبا
 الى الحال عند ما يفتح كل طالب طريقة غير التي اقترحها الآخر وأني يكون
 تقليد رأي في طرائق التعليم وهي مما لا يعرف الصواب فيها الا بعض العلماء الجبرين
 وانما ينت هذا على ظهوره ليعتبر به طلاب العلم في الازم فان كثيرا منهم يمدون
 عتبة في طريق اصلاح التعليم بما جروا عليه من العادات في المطالعة والفهم بطريق
 التفكير وتتبع المفردات والاعراض عن الاساليب والنظام الشروح والمحوashi
 والتقارير وقد كتبت غير واحد من المدرسين في تحسين طريقة التعليم بالجري
 على الاساليب الحديثة فاعتذروا بأن المجاورين يتوكون دروسهم اذا هم تركوا
 المؤلف فيها . وانما يأتي هذا الافساد من المجاورين الذين ألفوا طريقة الازم
 الصيقة بطول الجري عليها اذا المبتدئ لا رأي له وكان المنتظر من هؤلاء اذا تحكوا
 في ذلك أن يكونوا وسيلة للاصلاح لا لبقاء على الخطأ القديم . نعم ان فيهم من يطلب
 الاصلاح فلا يجده وهم الاذكياء من تلاميذ الاستاذ الامام رحمة الله تعالى وقد
 وجدوه الآن بمدرسة القضاء الشرعي وسيظهر أثر ذكائهم واستقلالهم بعد زمن
 قصير ان شاء الله تعالى

على أن التقليد في العلم نفسه ضروري للمبتدئ حتى يصير اهلا للنظر والاستدلال .

فبعد ذلك سلك ط . ن . الاستقلال ، ثم قال

(الوظيفة الرابعة) أن يحتز الخاض في العلم في سبيل الأمر عن الأصناء الى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيه من الإدراك والأطلاع بل ينبغي ان يتقن أولا الطريقة الحميدة المرضية عند أساتذته ثم بعد ذلك يهني الى المذاهب والشبه وان لم يكن أساتذته مستقلا باختيار رأي واحد وانما عادته قتل المذاهب وما قيل وفيها فليعزمته فان إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الاضياع لقود السيان إرشادهم . ومن هذا حاله فهو يد في هي الحيرة وفيه الجبل

« ومنع المبتدي من الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالاسلام من مخالطة الكفار . ونصب القوي الى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدققة ظن بعض الضعفاء ان الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المباهلات جائز ولم يدركوا أن وظائف الأقوياء تختلف ووظائف الضعفاء « الخ أقول وقد جرى هو على ذلك فانه أقن في الفقه مذهب الشافعي وفي الكلام مذهب الاشعري ثم نظر في سائر المذاهب والآراء على طريق الاستقلال ومن لم يتقن في أول أمره شيئا قلما يستفيد بذلك من الخلاف الاجرة واضطرابا . وما حذر عنه من الاخذ عن الدين ينقلون المذاهب والآراء ويعجزون عن تأييد شيء منها هو من أقنع ما يساق الى مجاوري الازهر الذي يكثر فيه أمثال هؤلاء المطيعين الذين لا يكادون يجزمون في مسألة خلافة شيء واشتهر بعض تبرأهم بذلك حتى صار بعض المجاورين يظن ان سرور الأقوال والآراء في المسألة هو الكمال في العلم وما هو الا متمي الجبل الذي ينصب بالاستعداد للعلم حتى ان من طال عهده به لا يمكن أن يكون عالما وحسبك بحجة الاسلام فتهنأ وناصحا . ثم قال

(الوظيفة الخامسة) أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المعجزة ولا نوعا من أنواعه الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العسر طلب التبحر فيه والا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتعرف من البقية (أي أخذ منها الطرف

والنواذر) فان العلوم متساوية وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك
عن مداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (١١:٤٦)
واذا لم يهتدوا به فسيتولون هذا إفاك قديم) وقال الشاعر:

ومن يك ذا فم مريض يجد سرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالبعد الى الله تعالى أو معينة على السلوك
نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود . والقوام بها حفظه
كمناظر الرباطات والتصور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة
إذا قصد به وجه الله تعالى « اه كلامه

أقول وهذا الكلام الأخير مبني على ما قرره في هذا الكتاب من كون جميع
العلوم النافعة في الدين أو الدنيا مفروضة دينا حتى فنون الصناعات التي عليها مدار
المنفعة فاتها من فروض الكفايات كفنون القنة وكهلالة الجنازة ومنى صلحت
نية القائم بها وأحسن عمله بالصدق وعدم الفس كانه بعمله هذه الفنون وبعمله
فيها عابدا لله تعالى مستحقا للثواب في الآخرة

وأما ما قرره من طلب الاطلاع على جميع العلوم والفنون المتداولة في العصر
فهو ما جرى عليه في تربيته لنفسه وعليه علماء فن التعليم من أهل هذا العصر وهو
حجة على كثير من شيوخ الدين عندنا فانهم لجهلهم بأنفع علوم العصر الكونية
والعقلية ينادونها وينفرون طلاب العلوم الدينية منها فيجتنون بذلك على دين أمتهم
ودنياها ويمدون الناس عن الدين بزعمهم ان هذه العلوم تنافي الدين كما قاله
الامام النزالي في أمثالهم من أهل عصره وسيأتي نقله عنه في فصل الكلام عن
رأيه في العلوم . ثم قال :

(الوظيفة السادسة) ان لا يتحوز في فن من فنون العلوم دفعة بل يراعي
الترتيب ويتدرج بالام فان المراد اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالمرم ان
يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشيء ويصرف جهام قوته في الميسور من
علمه الى استكمال العلم بقية هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة «

أقول ان هذا مسلم في جملة عند علماء فن التربية والتعليم من أهل هذا العصر وهو مرتبط بما تقدم في الوظيفة الخامسة وقد صار الكثيرون من أهل الغرب الذين اتسمت عندهم دائرة العلوم وكثرت فروعها يصرفون جهام قوتهم الى اتيان فرع من فروع العلم الواحد كطب العيون أو طب الآذان أو طب الامراض النفسية من علم الطب مثلاً وذلك بعد تناول طرف من كل علم وفن كما تقدم . وأما كون علم الآخرة هو أشرف العلوم فسيأتي بيان المراد منه وقد ذكر فيه هنا عالم نو من الصواب ذكره ثم قال

(الوظيفة السابعة) ان لا ينفوخ في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج قال تعالى (١ : ١٢١) الذين آتيناهم الكتاب يقولون حق تلاوته (أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقى الى ما فوقه . فينبغي ان لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب عليهم بالصل . ترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعلمين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها وقد مضى كشف هذه الشبهة في معيار العلم . وترى طائفة يستقنون بطلان الطب خطأ شاهده من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لسواب اتفاق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه خطأ اتفاق لآخر . والكل خطأ بل ينبغي ان يعرف الشيء في نفسه فما كل علم يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله : »

أقول ان هذه الوظيفة توجد في أكثر النسخ وسقطت من النسخة التي شرح عليها الزبيدي فالوظائف فيها تسع . وقد ذكر فيها أمران أحدهما ترتيب العلوم وهو مما لا مجال للخلاف فيه لاسيما في العلوم المتحدة في النوع كالرياضيات فان من لا يتقن الحساب لا يفهم الهندسة لتوقفها عليه والهيئة الفلكية متوقفة عليها جميعاً . ولأهل هذا العصر في ترتيب العلوم بالمدارس النظامية إتيان أي إتيان . والامر الثاني الحكم على العلوم بالوقوف عليها ومعرفة موضوعها وغايتها وأهم مسائلها

لا باعتبارات خارجية تؤخذ من حال أهلها كما ينفر بعض شيوخنا عن علوم مصر بشبهة قلة التمسك بالدين من أكثر متعلميها وما يدرهم أن ذلك جاء من سوء نظرية لا من طبيعة العلوم والحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقولون قال (الوظيفة الثامنة) أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وأن ذلك يراد به شيان أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخر الحياة الثانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوته . وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرة ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فأياك وإن ترغب إلا فيه وإن تفرص إلا عليه »

أقول يعني بالطريق الموصل طريق الصوفية الذي وصل هومنه بعد أن انقطعت به الطرق الأخرى من الكلام والفلسفة ومذهب الباطنية . وهكذا شأن الدعاة ينظرون إلى مقصدهم من كل ناحية اتحموها . ومن الناس من يقول أن أبا حامد يجذب الناس إلى الآخرة حتى يوشك أن تكون قراءة الإحياء وما شاكله من كتبه من أسباب تعطيل مصالح قارئيه وإضاعة دنياهم ومجر سائر العلوم والفنون وليس كذلك كما ترى في الوظيفة الآتية وأما هو دعوة إلى الكمال وسبيل تحقيق ذلك بعد . ثم قال

(الوظيفة التاسعة) أن يكون قصد المتعلم في الحال تعلية باطنة وتجيده بالفضيلة وفي المسالك القرب من الله سبحانه والتفريق إلى جوار الملائكة الأعلی من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارسة السفه ومباهاة الأقران . وإذا كان هذا مقصده طلب لاهلته الأقرب إلى مقصده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بين الحقارة إلى سائر العلوم أعني علم الفناوى (يعني به ما يسمى الفقه) وعلم النحو والفنن الجمليين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما

أوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية (كفتون
الصناعات كلها) ولا تفهم من غلونا في التنا على علم الآخرة تهجين هذه العلوم
فالمشكفون بالعلم كالتكفلين بالثور والمرابطين بها والفزاة المجاهدين في سبيل
الله منهم المقاتل ومنهم الرء ومنهم الذي يقيم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم
ويتعدها ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون
حياة الثائم فكذلك العلماء قال الله تعالى (٥٨ : ١١) برفع الله الذين آمنوا
منكم والذين أوتوا العلم درجات (وقال تعالى (١٦٣ : ٣) هم درجات عند الله)
والفضيلة نسبية (أي بينهم) واستحقاقا لصياقة عند قياسهم بالملك لا يدل
على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين . فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى
ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم
الصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن
يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ومن قصد الله بالعلم أي علم كان نفعه ورفضه لاجتهاده
أقول يعني رحمه الله تعالى أنه ينبغي لطالب الكمال أن يطلب بالعلم الذي
يتوجه لتحصيله وجه الله تعالى أي الوجه الذي يرضيه وهو الذي فيه إقامة سنته
في النظام العام ومنفعة الأنام وذلك مدعاة لا تقابل الأعمال وحسن النية فيها
وانتفاء الفس بها وهل ثم من طريق الكمال الانساني أقرب من هذا ؟ السنا
نشاهد نشر الفس والطعم والاحتيال والتسوة وأشياء هذه الرذائل في أهل
العلوم والفنون والصنائع الذين لا يعرفون الله ولا يفتقرون وجهه ؟ ثم قال :

(الوظيفة العاشرة) أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب
على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهتك ولا يهتك الا شأنك في الدنيا
والآخرة وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن ،
وشهد له من نور البصائر ما يهجر له من مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبدا لا يباد ،
وعند ذلك نصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سميا إلى المقصد ولا مقصد
الا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كنت لا تعرف قدره في هذا العالم الا
الأقلون ، الخ ما أطال به في هذه المسألة

أقول اذا أخذنا قول أبي حامد هنا على ظاهره فحكم بأنه غلط في قوله إن القرآن نطق بأنه لا يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة فإنا نسمع منادي القرآن يطل علينا في سورة الاعراف وهي من السور المكية التي بين فيها أصول الدين وكمياته « ٢٣ : ٧ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » ولكن المقول الذي نطق به القرآن هو أن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة وكان لا يعمل إلا لذاتها وشهواتها يفوته حظه من الآخرة كله أو بعضه وذلك إن حظ الانسان في الآخرة يكون على حسب ارتقاء نفسه في الحق والخير والاخلاص وغير ذلك من ثمرات الايمان وايقار الشهوات يضعف هذه الاشياء حتى يذهب بها من النفس فتبقى حيوانية شيطانية . ومن الآيات المبيحة لهذا التفصيل قوله (٢٠٠ : ٢) فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار ٢٠٢ أولئك هم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) وقوله (٣٧ : ٢٩) فأم من طغى ٣٨ وآثر الحياة الدنيا) انج الآيات . واتنا نجد في كلام أبي حامد ما يوافق هذا التفصيل في مواضع من الاحياء ككتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال والجاه وغيرها من كتب الاحياء ولذلك يمكن حمل كلامه هنا على ان المراد بكل من ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة مرتبة الكمال فيما فان من كان همه استكمال الذات البدنية لا يمكنه ان يستمد لتحصيل كمال نعيم الآخرة المبرر عنه بقاء الله تعالى والفوز برضوانه الاكبر بل ربما تغر عليه الاستعداد لما دون ذلك كما يفهم من التفصيل المذكور آنفاً

ثم بين أبو حامد بعد وظائف المعلم وظائف المعلم المرشد ويعني بالمرشد المري للنفوس المهذب للأخلاق فقال :

— بيان وظائف المعلم المرشد —

« اعلم ان للانسان في علمه أربعة أحوال كماله في اقتناء الأموال اذا صاحب المال حال استغادة فيكون مكتسباً وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن

السؤال وحال اتفاق على نفسه فيكون متشككاً وحال بذل لغيره فيكون به سخيّاً متفضلاً وهو أشرف أحواله . فكذاك العلم يقتضي كمالاً فله حال طلبوا كساب وحال تحصيل يفني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال فن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعي غلباني ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيئ لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكذلك الذي يطلب غيره وهو طيب . والذي يعلم ولا يعمل به كالفقر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكذلك الذي يشهد غيره ولا يقطع ، والابرة التي تكسو غيرها وهي عارية ، وذباة المصباح (فتيلته) تضيئ لغيرها وهي تحترق كما قيل :

ما هي الا ذباة وقئت نضيئ للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آداباً ووظائفه (الوظيفة الاولى) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد بولده » (٥) بأن يقصد إيقادهم من نار الآخرة وهوأم من إيقاد الوالدين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق العلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الدانية والعالم سبب الحياة الباقية ولولا العلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الملاك الدائم وإنما العلم هو المفيد للحياة الأخرى القائمة أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نفوذ بالله منه

« وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتعاون ولا يكون الا كذلك اذا كان مقصدهم الآخرة ولا يكون الا التماسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . الخ أقول غرض أبي حامد رحمه الله تعالى أن أول شيء يطلب من المعلم المربي

(٥) رواه أبو داود والنسائي وأبنا ما جاءه وجان من حديث أبي هريرة وليس فيه كلمة « للولد » ولفظ أبي داود « إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم » الخ وفي سننه من تكلم فيه

هو أن يكون تلاميذه كأولاده في تربيتهم بالشفقة والرحمة دون الغلظة والقسوة ومن لوازم الرحمة والشفقة حفظ كرامة الناشئ وتربية ملكة العزة والشرف في نفسه ومن لوازم القسوة إهانة وتقصيره ولا شيء يفسد الاخلاق كالقسوة في التربية وامتهان المربي واحتقاره بالقول أو المعاملة . ولا أعون على التربية مع الرحمة والتكريم من السير فيها على هدي الدين من قصد الآخرة والتجذير من الفروع بمقاصد الدنيا وحفظها الحفيرة وقد جرى أهل المدارس الدنيوية في هذا البصر على طريقة الرحمة والتكريم في التربية ولكنهم أهملوا أمر الدين فكان أكثر المتخرجين في مدارسهم لاهم لهم من حياتهم الا التمتع بالشهوات وطلب المال من غير مبالاة بمحرام ولا حلال . ثم قال

(الوظيفة الثانية) أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات عليه وسلامه فلا يطلب على إفاة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى وطبعا لتقرب اليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وان كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب الى الله تعالى بزيادة العلوم فيها كالذي يسيرك الأرض للزراع لنفسك فيها زراعة فنفسك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقدم منة ؟ وثوابك في التليم أكثر من ثواب التعلّم عند الله تعالى ولولا التعلّم ما نلت هذا الثواب فلا نطلب الاجر الا من الله تعالى كما قال عز وجل (٢٩: ١١) ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري الا على الله) فان المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن منكب النفس ومطبتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس فمن طلب العلم بالمال كان كمن مسح أسفل نعله بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما والمخدوم مخدوما وذلك هو الا تتكاس على أم الرأس ومثله هو الذي يقوم في العرض الأ كبر مع المهربين نا كسي رءوسهم عند ربهم وعلى الجملة فالفضل والمنة تعلم ه فانظر كيف انتهى أمر الدين الى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب الى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيما وفي غيرها فانهم يبدلون المال والجاه ويحصلون أصناف القل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك تركوا ولم يختلف اليهم

« ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر عليه ويمادي عدوه ويتنهض حاراً له في حاجاته مسخراً بين يديه في أوطاره فان قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخس بهالم يرضى لنفسه بهذه المنة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول : غرضي من التدريس نشر العلم فخر با إلى الله تعالى ونصرة لدينه ، فانظر إلى الأمارات ، حتى ترى ضروب الاغترارات »

أقول أما أخذ الأجرة على التعليم ففيه بحث وإن كنا لانخالف أبا حامد في كون ما ذكره هو الكمال اللائق بعلماء الدين لاسيما إذا كانوا في سعة من العيش ولكن التعليم قد صار صناعة لا يقتنها الا من اقتطع لها عن الأعمال والمكاسب فمن كانت هذه حاله لا يمنع إخلاصه في التعليم وابتغاء وجه الله به قبول الأجرة عليه لاسيما إذا كانت الأجرة من المصالح العامة كالأوقاف وخزائن الحكومات وادارات المدارس التي تنشئها الجمعيات أو الأفراد

وأما ما قاله في العلماء الذين جعلوا الدين أجولة لصيد المال والجاه والتقرب من الأمراء والحكام فهو الحق الأبلغ وكذلك كلامه فيمن يحاولون استخدام تلاميذهم وتسخيرهم في منافعهم والاقتصار لهم . وإذا كان هذا شأن الكثير من الفقهاء والمتكلمين في عصره فإذا كان يقول لورأى علماء الدين في عصرنا هذا ؟؟ فليعتبر المتعبرون ثم قال

(الوظيفة الثالثة) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرغبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي . ثم ينبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقييد ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده . فان علم من باطنه أنه لا يطلب العلم الا لدنيا نظر الى العلم الذي يطلبه فان كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام ، والفتاوى في الخصومات والأحكام ، فيمنعه من ذلك فان هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : تعلمنا العلم لنبر الله فأبى العلم أن يكون الا لله : وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة

ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه ينشمره طمعاً في الوعظ والاستبعا ولكن قد يشبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المحرقة من الله تعالى المحقرة لدنيا المنظمة للآخرة وذلك يشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى ينمظ بما يعظ به غيره ويمجى حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالى انفع ليقص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل ، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم

« فاما الخلافات المفضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة (أي في الفقه) فلا يزبدانترغ لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب وخفة عن الله تعالى وتعمداً في الضلال ومالاً للجاه الأمن تداركه الله تعالى برحمته أو منج به غيره من العلوم الدينية ولا برهان على هذا كالتجربة والملاحظة فانظر يا أخي واعتبر واستبصر لتشهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان »

أقول هذا ما يقوله حجة الاسلام في التقواء والتكلمين أيام كانوا أئمة في هذه العلوم بهم ارتقت واتست دوائرها وكانت محتاجا إليها لوجود الفلاسفة والمبتدعة الذين يود عليهم المتكلمون ولكون جميع الأحكام في بلاد المسلمين كانت جارية على أحكام الفقه وهو مع ذلك يمد علومهم دينوية ويقول إنه علم بالتجربة كما علم بالبرهان أنها لا تزيد القلب إلا قسوة وحبا في الدنيا وإعراضاً عن الله تعالى فإذا نقول في المتكلمين هذه العلوم اليوم وهم مقلدون لأولئك الذين كانوا في عصره ولن دونهم ممن جدم والحاجة إلى علومهم الآن ليست كالحاجة إليها في عصره فإن معظم قتهم لا يحكم به أحد من حكم المسلمين اليوم ومعظم علم الكلام الذي يراولونه لا حاجة إليه لأنه عبارة عن رد على الفلسفة اليونانية التي نسخت بالفلسفة العصرية وعلى المصلحة الدين اقترضوا

مع هذا ترى شيوخ العصر في الأزهر وأمثاله من المدارس الإسلامية في سائر البلاد يشجعون بأنهم رجال الدين المحافظون عليه وهم لا يلتفتون إلى علومه

الحقيقة التي تهذب النفوس وتصلح القلوب وتربي الأرواح من التفسير والحديث والاخلاق وسنن الله في الأقسام والآفاق وحكمه في المخلوقات كما أوضحه حجة الاسلام في الاحياء . وقد تصب الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله تعالى واجتهده وقاضى البلاء ليكمل علم الاخلاق وتاريخ نشأة الاسلام والتفسير الحقيقي مما يدرس في الازهر فلم يصادف من القوم الا اعراضا فاما تفسير كتاب الله على أنه هدى ورحمة وموعظة وعبرة فقد أحياه بنفسه ولذلك مات بموته وأما الأخلاق وآداب الدين وتاريخ الاسلام فقد تقرر بحسبه تدريسا رسميا ولكنها لا تدرس ولا يحفل بها أحد ومع ذلك كله كانوا يحاربونه بزعم أنهم يشغلهم عن علوم الدين ويرددون بالسبهم وأقلام الجرائد المنتصرة لهم كلمة « الازهر مدرسة دينية محضة » فليعرضوا هذا القول على ما قرره حجة الاسلام في الاحياء في هذا الموضع وغيره ولينظروا بعد ذلك مكانه من الصدق . ألا إن الازهر وأمثاله مدارس دنيوية محضة بحسب ما قرره أبو حامد ولا نعرف أحدا من العلماء نازعه فيها قريه ويشهد لذلك أننا لا نرى المتخرجين فيها يحفلون بأمر الدين وإرشاد المسلمين .

أين المنصرون تهذيب النفوس وتربية الأرواح ؟ أين حماة العقائد من شبهات المعلوم المصرية ، وأهل النيرة على دين النابتة الحديثة ، أين أنصار السنة ، المخاذلون للبدعة ، أين الدعوة إلى الدين ، بحسب ما يلقى بحال المعاصرين ؟ مهما رفعت صوتك بالنداء لا تسمع منهم مجيبا . ثم قال أبو حامد

(الوظيفة الرابعة) وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح و بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الاصرار اذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لقتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء » (هـ) وفيهك على هذا

(هـ) قال العراقي في الحديث لم أجده الا من حديث الحسن مرسل وهو ضعيف رواه ابن شاهين : قال شارح الاحياء ووجدت بخط الداودي مانعه : ولقد ابن شاهين « لو منع الناس فت الشراك قالوا فيه الند » وفي مناه حديث آخر

قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيها عنه فما ذكرت القصة لتكون سمرا بل لتنبيه بها على سبيل العبرة . ولأن التعريض أيضا يحيل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفتن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا ينبغي عن فطنته .

أقول رحم الله أبا حامد ما كان أحرمه على تكريم الطلاب وتنشئهم على العزة والشرف فهو يدخل على هذا المعنى من كل باب ، ويوصل إليه بأنواع الأسباب ، فأين من هذا ما يجري عليه شيوخ مشهورون من الفلظة والسباب ، ونيز تلاميذهم بأقبح الألقاب ، حتى صار الذين ينظمون في المدارس الدنيوية يفتنون أن التواضع والتكريم للطلاب ، مما وضعه الأفرنج من الآداب ، وهكذا جردنا أنفسنا من آداب ديننا ، حتى صارت نمرى إلى غيرنا ، ثم قال

(الوظيفة الخامسة) إن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يتجسس في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كعلم اللغة إذ عاده تبصيح علم الفقه ومعلم الفقه عاده تبصيح علم الحديث والتفسير وإن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن المجاز ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك فروع وهو كلام في حبس النسوان ، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلا بعلوم ينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من ذببة إلى رتبة .

أقول إن السبب في مدح كل متكفل بمن أو علم له وذم غيره أو تقليل شأنه هو ما يمدونه حب الذات فهو لا يريد بذلك إلا مدح نفسه وتفضيلها على أقرانه ومما صير به فهو قد ينم العلم الآخر وإن كان عارفا بفائده فكيف إذا كان جاهلا به . ثم قال

(الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالتعلم على قدر فهمه فلا يأتي إليه مالا يلائمه عقله فيفهمه أو يخط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن مأمرون بالآباء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على

قدر عقولهم « (١) فليث اليه الحقبة اذا علم انه يستقل بغيرها قال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » (٢) وقال علي رضي الله عنه وأشار الى صدره : إن هنا لعلوًا جمة لو وجدت لها حلة : وصدق رضي الله عنه (وفي نسخة الشارح عليه السلام) في قوله قلوب الأبرار قبور الاسرار

(١) هذان حديثان أوردهما في سياق واحد أما الأول فقد ذكر في الجامع الصغير وفي كنوز الخفاف من حديث عائشة بلفظ « أنزلوا الناس منازلهم » معزواً في الأول الى مسلم وأبي داود وفي الثاني الى مسلم فقط . وعزوه الى مسلم سهو من السيوطي والمنادي فان مسلماً لم يخرج في صحيحه وإنما ذكره في مقدمته بغير إسناد وغير جزم إذ قال « ويذكر عن عائشة » وأما أبو داود فقد أخرجه في الأدب من سننه ورواه كثيرون فمنهم من تكلم في سننه كقول أبي داود إن ميسون ابن أبي شيب لم يدرك عائشة ومنهم من صححه كالخامس وابن خزيمة وقال السخاوي حديث حسن . ورواه بعضهم عنها بلفظ « أمرنا رسول (ص) أن نزل الناس منازلهم » وورد بألفاظ أخرى

وأما الثاني فقد روي في الجزء الثاني من حديث ابن الشخير عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « أمرنا معاشر الانبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » كذا قال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء والمحقق البخاري في كتابه الجواهر والدرر وفي معناه حديث « حدثوا الناس بما يعرفون أتر يدعون أن يكذب الله ورسوله » رواه الديلمي في مسند الفردوس عن علي مرفوعاً وهو في البخاري موقوف ووضع السيوطي في الجامع الصغير بجانبه علامة الحسن .

(٢) ذكر المصنف هذا الحديث في باب قبل هذا الباب بلفظ « ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه الا كان فتنة عليهم » وتقل شارح الكتاب عن المحافظ العراقي أنه قال : أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود نحوه : اه قال الشارح ولفظ حديث ابن عباس « ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم الا اذا كان على بعضهم فتنة »

فلا ينبغي ان ينفي العالم كل ما يعلم الى كل أحد هذا اذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً
 للاقتناع به فكيف فيما لا يفهمه . وقال عيسى عليه السلام « لا تماقوا الجواهر في اعتناق
 الخنازير » فان الحكمة خبر من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ولذلك
 قيل : كل لكل عبد بميزان عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه ، وينفع
 بك ، والا وقع الإنكار ، تفاوت المعيار ، : وسئل بعض العلماء عن شيء فلم
 يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كنتم
 علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجأً بلجام من نار » ؟ () فقال أترك اللجام واذهب
 فان جاء من يفتقه وكنتمه فليجمني فقد قال الله تعالى (٤ : ٤) ولا توتوا السفهاء
 أموالكم (ثببها على ان حفظ العلم ممن يفسده و يضره أولى وليس الظلم في
 إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق) اهـ

أقول جعل بعض أهل النظر هذه المسألة - إظهار الحقيقة لكل أحد في
 كل وقت - محل بحث والبحث فيها من الجهة النظرية مجال ولكن من بلا الناس
 وعرف شوؤهم يحكم في هذه القضية بالسلب حكماً لا ترد فيه ولقد كان الانبياء
 المؤيدون بعناية الله وآبه يظهرون حقائق الدين بالتدريج ويستعملون الكلام
 المجمل والكنايات والتجوزات والتشابهات التي يأخذ منها كل ذي عقل وفهم
 على مقدار عقله وعمله . نعم لا يجوز لأحد ان يقول قولاً يخالف الحقيقة ليقبله الناس
 فان فاعل ذلك من الكاذبين افاشين ، لا من الحكماء الناصحين ، واذا كان هذا
 يناقض الصدق والحكمة ، فهو أشد منافاة للنبوة ، ومن ثم تعلم ان ما يقوله بعض
 الباطنية حتى في زماننا هذا من ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قالوا اشياء
 يخالف الحقيقة مراعاة لافهام الناس واستعدادهم هو من الباطل الذي لا يدنو من

() قال الحافظ العراقي أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد وافظه
 عند السيوطي في الجامع الكبير « من كنتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر
 الدين ألجهم الله يوم القيامة بلجام من نار » اهـ أقول وفي الجامع الصغير من
 حديث ابن مسعود عند ابن عدي « من كنتم علماً عن أهل الجحيم يوم القيامة
 لجأوا من نار » وهو ضعيف

الصواب منه بل هو دليل على أن هؤلاء الباطنية يستعملون الكذب والنفس والخداع فلا ثقة بأقوالهم ولا بمقائدهم أعني أنه لا يوثق بأنهم يعتقدون ما يقولونه ويدعون إليه بل هم طلاب رياسة من طريق الاتتعال في الدين وتشكيكه بشكل وثي كما يعلم من تاريخهم منذ وجدوا إلى أن ظهروا باسم الباطية والبهائية في هذا الزمان . ولهذا الذي قرره أبو حامد في هذه الوظيفة جعل كتابه هذا مرتباً على ما يشبه ترتيب الفقه الذي كانت الرغبات كلها أوجها متوجهة إليه في ذلك العصر استدراجاً لقلوب اليه في ذلك العصر وحذراً أن تنفر منه كما صرح بذلك في فاتحته ، ولأنه جعل أحكام الفقه فيه على مذهب الشافعي إلا قليلاً على أن رأيه في الإصلاح قائم على قاعدة إبطال التقليد كما سيأتي عنه فكانه أراد أن يجعل الإحياء مقدمة لما قرره في كتبه التي ألفها بعد ذلك كالنظام المستقيم والمتقن من الضلال والمضنون به على غير أهله . ثم قال

(الوظيفة السابعة) ان المعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يشتره في الجلي ويشوش عليه قلبه ويؤم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فإما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشدهم حكمة وأضخم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله

« وهذا يعلم أن من قيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه التآثر المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سيرته ولم يحمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يحل وحرفته فانه لو ذكر له تأويلات النظام انحلت عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي ويتقلب شيطاناً مريباً يهلك نفسه وغيره . بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الامانة في الصناعات التي هم بصورها ويملاً قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فانه رعا تملقت الشبهة بقلبه ويسر عليه حلها فيشوق ويهلك

« وبالجملة لا يقتض على العوام باب البحث فانه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص »

أقول أرشد في هذه الوظيفة الى نوع من أنواع التدريج في تعليم طلاب العلوم والى طريق تعليم العامة ومن هذا يتبين لك ان ما يلح بالسعوى اليه من الاعراض عن الدنيا والرغبة في معرفة الله تعالى والعلوم التي تقرب اليه انما هو موجه الى الخواص أصحاب الاستعداد للكمال كما أشرنا الى ذلك وسنزيد بياناً . ثم قال

(الوظيفة الثامنة) « أن يكون المعلم عاملاً بطله فلا يكذب قوله فله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وأرباب الابصار أكثر فاذا خالف العلم العمل منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تناولوه فانه مسمم مهلك مضر الناس به وأهموه وزاد حرصهم على ما هو عنه فيقولون لولا أنه أطيب الاشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه ومي استوي الظل والعود أعرج ولذلك قيل في المعنى :

لاته عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فطنت عظيم
وقال الله تعالى (٢ : ٤٤) أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر اذ يزل يزل بوزله عالم تشر ويقتدون به « ومن من منة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها » (« ولذلك قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متبذك ، وجاهل متبذك ، فالجاهل يتر الناس بتسكه ، والعالم يفرم بتسكه ، : والله أعلم » اهـ

أقول يجب أن يكون المعلم مريباً وقوام التربية بالقدرة فاذا كان المعلم لعلوم الدنيا أو الدين ميباً الاخلاق فاسد الآداب فانه يفسد نفوس تلاميذه بالفضل وما يقوله لهم من النصائح يكون عندهم من الأقوال التي يقصد بها النش والرياء فالجهل بها خير لهم من معرفتها